هل الثورة

حق من حقوق المجتمع ؟

— ٢ —

الأستاذ الياس يعقوب

في تاريخ الشرق العربي الحديث كثير من الانتفاضات الارتجالية التي ندعوها خطأً بالثورات. لأنها لم تستكمل أسباب النشوء ولم تحقق الانسجام التام بين الأهداف التي تنشدها والوسائل التي أعدتها لتحقيق هذه الأهداف. وبكلمة وسائل أقصد الناحية المادية كما انني أقصد الجبهة البشرية التي يجب أن تؤمن بضرورة الثورة وصحة أهدافها وتعتنق مبادئها. وهذه الثورات جاءت إثر تململات حدثت من جراء وجود الأجنبي، لا بناء على نظرة جديدة إلى الحياة ترمي إلى نسف المفاسد والمساوىء التي أورثتها عهود الانحطاط والاستبداد. انها كانت ضرباً من النقمة التي تشب بسرعة ثم لا تلبث أن تخمد بسرعة. ومن خصائص النقمة أن تحدث دوياً وتحرز بعض النجاح في مبدأ الأمر عند انفجارها، لكن هذا النجاح لا يستمر طويلاً، بل يتحول إلى فشل في السياق الطويل. وطالما تصدم بعقبة كؤود، أو يزول عنها الرأس، أو يتعذر عليها النصر، فتتسرب الخيبة واليأس والتخاذل الى صفوفها. والتسرع في الشروع بأمر جليل قبل استيفاء الشروط يدل على نزق الشعب وبعده عن الأناة والصبر وغلبة الحماس على العقل والرصانة. أما الثورات الحقيقية التي تقوم على أسس فكرية، وتسترشد بأضواء عقيدة واضحة، لا تفت الهزيمة في عضدها، ولا تقلق من استشهاد قائدها، ومن تراكم الضحايا صرحاً لقوتها ومهمازاً لمضاعفة البذل والعطاء.

ويبدو لنا أن حظ الثورات الدامية قد أخذ يتضاءل على الرغم من الثورات العنيفة

التي حدثت في النصف الأول من هذا القرن ، مما يدل دلالة واضحة على انه لا يزال لدى الشعوب وضرة من الجرأة للانقضاض على الفئة الحاكمة أو المحافظة وانتزاع السلطة من يديها ، والتخلص منها بشتى الطرق أو تغييرها لتتم لها حرية تحرير الانظمة فيما بعد . وبدلاً من التفكير في الثورة والتوسل بها لقلب الحكم ، بدأ الناس يميلون لترجيح فكرة الاصلاح ، يقيناً منهم أن ما تأتي به الثورة الكاسحة الجارفة لا يتأصل في النفوس بسهولة ، وسرعان ما يتبدل حالما تعود الأمور الى نصابها ويثوب العقل الى رشده . وان الاصلاحات التي تبقى هي التي لا تنفك تتأصل وتتراكم مع الزمن . ومن هذه الاصلاحات المستمرة تحدث الانقلابات الكبيرة بهدوء دون أن تهز كيان الانسان . والسبب الذي يدعو الى تحبيذ الانقلاب الذي يأتي عن طريق الاصلاح الدائم يعود الى تطور نفوذ الدولة ، وامتداد هذا النفوذ يشمل سائر وجوه النشاط البشري ، ومن جملتها مؤسسة الجيش وقوى الأمن الداخلي . وهكذا أصبح بوسع الدولة التي تسيطر على زمام الأمور أن تشل كل حركة تقوم بها الفئة المناوئة . فمبدأ تأميم المرافق الاقتصادية من جهة ، أو المبدأ الذي يخوّل الدولة حق امتلاك سائر وسائل الانتاج من جهة ثانية ، والسيطرة الكلية على الانتاج وتحديد نوعه وكميته والنصيب منه من جهة ثالثة ، جعل الدولة تقبض بقوة على النواحي الحيوية في البلاد . وبما أن التعليم يكاد يكون منوطاً بها وحدها ، ولها حق الاشراف على التعليم الخاص وفرض برامجها ، فقد أصبح بامكانها أن تصوغ العقلية التي تشاء ، وتكافح العقائد والمفاهيم التي لا ترضى عنها . وان في رقي أسباب المواصلات ما يساعدها على سرعة تدارك الأمور قبل استفحالها ، وفي السيطرة على محطات الاذاعة ووسائل النشر مما يجعلها تكيّف الحالة المعنوية وأعصاب الجمهور حسبما ترى وتريد . جميع هذه العوامل جعلت الثورة العنيفة متعذرة إن لم تكن مستحيلة . ولهذا بات علينا أن نبحث عن طراز جديد للثورة نبغي من ورائه بلوغ الاصلاح المنشود .

إن نماذج الثورات التي يقدمها التاريخ أمامنا تولد فينا الانكماش ، لأنها ترسم على لوحة المخيلة صورة قاتمة للحالة السيئة التي يمكن أن تنشأ من جراء الاقتتال بين أبناء الوطن الواحد ، والبلد الواحد ، والأسرة الواحدة . والماضي ، كيفما كان ، لا ينبغي أن يسحق تحت عجلته قوة الابتكار فينا ويفقدنا ميزة الاصالة . وليس خيراً أن نتبنى نظرة الغير لأنها لا تتفق إلاّ مع مصلحته ومرامي نفسيته فقط . ان حالات الشعوب لا تتماثل أبداً فكيف يتسنى لنا النجاح في اللجوء الى وسائل لا تتفق مع الملابسات الخاصة بنا ، لأن

كل أمة تتأثر بعصورة فذة في العوامل التي يساهم المحيط في توليدها ، وماضي الأمة ، والعقلية القومية التي تنشأ عن التفاعل مع البيئة ، وعن التأثر بالماضي . والثورة لا تطلق على سبيل الاحتذاء والتقليد ، بل ينبغي أن تأتي وليدة الضرورة ، وأن تكون الطريق إليها ممهدة ، والمسافة بين الداعي إلى الثورة والجمهور قريبة .

إذا لم يتمكن الانسان أن يثور لاسباب خارجة عن إرادته وقدرته فيتحتم عليه أن يكون مصلحاً . وان الاصلاح المستمر إذا استبعد حدوث الثورة بمفهومها المألوف فانه لا ينفي مبدأ الثورة التي ترمي إلى التحرر من الطغيان والمساوىء والرغبة الدائمة في التطور نحو الأفضل والأكمل . إن (قاسم أمين) لم يعلن ثورة جرت البلاد المصرية إلى الاقتتال والتدمير ، أو يعاقب عليها القانون ، ويقسو التاريخ في الحكم عليها ، لكنه شاء أن يكون مصلحاً للأسرة المصرية عن طريق تحرير المرأة من عبودية الرجل والجهل والتقاليد . وان انتفاضة مصر عام ١٩١٩ لا تقارن ، لا من ناحية الأثر ولا من ناحية العمق ، بحركة قاسم أمين .

وعملية التطور يستحيل أن تظل مستمرة في سيرها . إنها كثيراً ما تتوقف هنا أو تتباطأ هناك تبعاً للعوامل المثبطة أو المعطلة . وتاريخ الانسان ، أينما كان ، مكوّن من عصور أخلد فيها إلى الاستقرار ، وعصور أخرى أخذ فيها يتطور . والانسانية شاهدت عصوراً كثيرة خيل لها أنها دائمة : كالامبراطورية الرومانية ، والعصور الوسطى ومفاهيمها الدينية وأسسها الاقتصادية والاجتماعية والحقوقية والثورة الفرنسية ذاتها لم تكن سوى حلقة في سلسلة التطور . والمجتمعات الانسانية في الوقت الحاضر غنية جداً بالوسائل والأسباب التي تساعد على التطور وتنمي حركة الاصلاح . فاذا كان البارود والمطبعة استطاعا أن يقلبا أسس المجتمعات فيما مضى ، فما عسانا أن نقول في الأثر الذي تخلفه مخترعات هذا القرن ؟!

إن الثورة التي تكون غايتها الاصلاح — لا الثورة فقط — لا ترى الحل الصحيح في الانقلابات السياسية التي تقتصر على إبادة الفئة الحاكمة أو تنحيتها وتتصف بالانتقام والمطاردة . لأن هذا الضرب من الثورة لا يرتسم إلا عن النفوس التي أعمتها شهوة الحكم وعجزت عن الاحاطة بالمشكلة القائمة وتشخيص الداء ووصف الدواء . وإذا كانت لا ترى الاصلاح منوطاً بجهاز الحكم فانها لا تؤمن ان الاصلاح الحقيقي يهبط من لدن السلطة، بل انه رغبة تنبت وتنمو في نفوس الأفراد والهيئات . إن جهاز الحكم الفاسد

الذي نشكو منه هو التعبير الصحيح عن الفساد في جميع الشعب ، وهو منبثق عن هيئة اجتماعية متدبرة في مفاهيمها ، منحطة في مناقبها . والسعي إلى إزالة هذا الجهاز حقداً وانتقاماً دون الالتفات إلى تثقيف الشعب وترقية مفاهيمه وتهذيبها لا يجعل السواد بياضاً والمرض صحة . إنما يحقق الإصلاح حقاً ويولد نهضة في الأمة رسالة جديدة ذات مبادىء صحيحة وصريحة ، تضع الحلول للمشاكل التي يتخبط فيها الشعب . وبقدر ما تهتم بمعالجة المرافق المادية ، تشتد في تعزيز المناقب والفضائل التي تسمو بالمجتمع ، لأن أساس الارتقاء الانساني لا يكون فقط في رقي الوسائل المادية ، بل يجب أن يصحبه تقدم أخلاقي وفكري .

واذا كانت بعض المجتمعات تتخبط في سيرها على غير هدى فلأنها فقدت مزيتي الجرأة والابتكار فعلى الحركة الجديدة أن تكون جريئة على اجتثاث المفاسد ، لأن مهادنتها تجعلها تستفحل وتسود . ولا نقصد بالجرأة محاولة تجريد الانسان عن الماضي وسلخه عن تاريخه ، أو بإمكان تجديد المجتمع كلياً بقوة القانون من ضمن نظرة خاصة تفرضها السلطة بقوة الحديد والنار . بل نقصد القضاء بحزم على المساوىء التي تخالف معطيات العقل وتنافي المصلحة القومية . وينبغي أن نوقن أولاً أن الاوضاع الراهنة ليست حتمية أو أزلية ، وليست القضية أن أصون أنظمة لا أثق بها . بل يتحتم عليّ ، كمواطن ، أن أدفع هذه الأوضاع إلى الأمام لتصبح أفضل . ان روح المحافظة تؤدي إلى الانحطاط ، والشعوب التي تسيرها هذه الروح لا تستطيع الصمود في حلبة الصراع العالمي لأن الحياة صراع . وفي حياتنا ينبغي أن نخرج من تجربة لندخل أخرى في سبيل تصحيح الاخطاء التي نرتكب ونسير في موكب التطور . ويليق بالانسان أن يحطم شرنقة السكون والانفعال ، ليدخل نطاق الفعالية متسلحاً بالعقل والارادة .

والاصلاح لا يكون حقيقياً مالم يكن عاماً وأساسياً . إنه لا يعالج ناحية واحدة فقط من حياة المجتمع بل سائر النواحي . وليس أخطر على حياة الأمم من النظرات الجزئية التي تقوم حتماً على فلسفة خاطئة . وهذه النظرات تعتقد أن اصلاح نظام ما يكفي لاصلاح الحياة بأسرها ، وتكييف الاخلاق والعواطف . فالمادية التاريخية تظن ان في إصلاح النظام الاقتصادي ، بانتزاع الملكية الخاصة وتحويلها إلى ملكية الدولة ، ما يجعل الاصلاح يشمل جميع نواحي الحياة . ويرى البعض أن الشر يكمن في نظام الحكم أو في الطبقة الحاكمة ، ولهذا يكفي أن نأتي بنظام جديد وحكومة جديدة حتى تستقيم الامور .

إن حياة الانسان في سيرها المتصاعد تحتاج الى اصلاح شامل . والاصلاح لا يكون في معالجة الظواهر والنتائج بل في معالجة الأسباب والعلل التي تنشأ عنها الفساد . إن معالجة الظواهر سهلة لكنها ليست ناجعة ، أما البحث عن الأسباب فانه شاق وطويل وهذا لا يثمر الاصلاح الحقيقي بسرعة . وكثيراً ما يزهد الناس في النهضات الأصيلة التي تعالج جوهر الامور وتتأخر في جني الثمار ، ويؤيدون الحركات التي تثمر بسرعة وان كان في قيامها كل الخطر على حياة الأمة . إن الاصلاح الحقيقي يبدأ بالمواطن في اعتباره على كل شيء . فكل سيئة يشكو منها المجتمع في أي حقل من حقوله ليست الا صورة منعكسة عما يكمن في نفوس الأفراد وهذه النظرة لا تسيء الى مقام الانسان بقدر ما ترفع من شأنه .

وليس من مهمة الحركة الجديدة أن تحطم القيود التي كانت تكبلنا في الماضي لتستعيض عنها بقيود جديدة تكون أشد وطأة على الجسم والفكر ، بل يترتب عليها أن تحطم القيود وتزيل المضايقات على أنواعها . وفي كل مرة يتمخض المجتمع عن حركة جديدة يجب أن نبحث عن الحرية في منهاج الحركة . فاذا لم تأت في رأس القيم التي يجب الصراع من أجل تحقيقها والمحافظة عليها تحتم علينا مقاومة هذه الحركة والقضاء عليها . إن الحرية أسمى القيم ولا يوجد ما يبرر تعطيلها . والحكومات التي تفرض فترة من التضييق على حريات الانسان الاساسية — قد تطول أو تقصر — تعود بالشعب الى الجمود ، وتسلبه ما كافح وجاهد للحصول عليه . إن الثورة لا تنشأ إلا عن الطغيان مثلما يحصل الانفجار من جراء الضغط ، لكن الاصلاح لا ينشأ إلا في ظل الحرية ، ومن جهة أخرى فانه يرمي الى إقامة دعائم حرية الجميع . ونلاحظ أن الاصلاح في البيئة الحرة لا يصاحبه انفجار عنيف ، بل يتمخض عن سلسلة لا تنقطع من التطور المستمر نحو الأفضل وفي هذا الجو المنعم بالحرية تقتصر مهمة الانسان على وضع البرامج للتخلص من المساوىء ودعوة الناس الى تحقيق حالة أسمى وليس في التنبيه إلى الحقوق والواجبات واعلان الفساد ما يعتبر تحريضاً وحضاً على الثورة العنيفة ، وما لم نشد بنياننا على أساس من الحرية فان جميع المثل والعقائد تحتضر في ساحة الفقدان والظلم . وليست مشكلة واحدة تحل بالحرية ، بل إن مشكلة الوجود الانساني بكامله لا نجد لها حلاً إلا من خلال الحرية .

إن الثورات الكبرى الحقيقية هي التي انبثقت من الفكر الذي اعتنق عقيدة وحمل رسالة . والانقلابات التي يمكن أن تصمد في وجه الزمان وتغير وجه التاريخ هي التي لا تتناقض مع الطبيعة البشرية والتي تؤمن بها الشعوب والتي تنبعث تدريجياً كلما أدركت قمة امتد بها النظر الى قمة أعلى ، ووراء كل أفق تبصر آفاقاً جديدة أكثر اتساعاً وأسمى رواء